

DOI: 10.54240/2318-013-002-017

مدرسة دار الحديث: رمز للتحدي والصمود

Dar al-hadith in Tlemcen. Symbol of challenge and resilience

صص 300-314

اسم ولقب المؤلف المرسل: صافر فتيحة- Safer Fatiha

الدرجة والعنوان المهني: أستاذة محاضرة أ في التاريخ الحديث والمعاصر- جامعة وهران 1- الجزائر
البريد الإلكتروني: saferfatiha2@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2023-06-17.. تاريخ المراجعة: 2023-07-10.. تاريخ القبول: 2023-11-10

الملخص: دار الحديث واحدة من المدارس الكبرى التي أسستها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمدينة تلمسان، وقد جاءت هذه المبادرة من قبل الشيخ البشير الإبراهيمي الذي وجد كل التأييد والمؤازرة عند شيوخ وأعيان المدينة، ولم يتأخر أهل تلمسان بكل مستوياتهم لجمع المال الضروري لشراء الأرض، وتشبيد مدرسة على طراز معماري عربي أندلسي؛ فكانت تضاهي المدارس الحديثة في تنظيمها وهيئتها.

كان تدشين دار الحديث يوما مشهودا في تاريخ المدينة تلمسان وأهلها، وما إن انتهت مراسيم الاحتفال المشهود حتى بدأت في تأدية مهامها بتعليم أبناء الجزائر دينهم ولغتهم، وباقي العلوم الأخرى من تاريخ وجغرافيا ورياضيات...، لكن الإدارة الفرنسية كانت لها بالمرصاد؛ فلم تمض بضعة أشهر حتى أمرت بإغلاق أقسام التعليم، ولم تترك لهم سوى قاعة المصلى بحجة أن المدرسة لم تتحصل على رخصة لممارسة نشاطها التعليمي.

ظلت دار الحديث تتصدى لمحاولات الإدارة الفرنسية لإغلاقها وتحجيم دورها إلى غاية الحرب العالمية الثانية عندما أمرت بتحويلها إلى ثكنة للجيش الفرنسي، وإلى غاية استقلال الجزائر كانت دار الحديث في صراع دائم مع السلطة الاستعمارية، وظل طاقمها مصرا على أداء دوره لتعليم أبناء الجزائر، ونشر الوعي بين أهالي المنطقة عبر دروس الوعظ والإرشاد التي كان يقدمها الشيخ البشير الإبراهيمي.

الكلمات المفتاحية: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ مدارس الجمعية؛ المدارس الحرة؛ تلمسان؛ البشير الإبراهيمي.

Abstract: Dar al-Hadith is one of the great schools created by the Association of Algerian Muslim Scholars in the city of Tlemcen. This initiative came from Sheikh al-Bashir al-Ibrahimi, who found all the support and backing of Ulamas and notables of Tlemcen, to raise the necessary money to buy the land and build a school in an Arab Andalusian architectural style, A few months after its inauguration, the colonial administration ordered the closure of the educational rooms and left them only the prayer room, on the pretext that the school had not obtained a license to carry out its educational activity. Dar al-Hadith was in constant struggle with the colonial authority. And it contributed to preserving the Algerian identity and to forming elite of Algerian intellectuals on whom independent Algeria relied.

Keywords: Association of Algerian Muslim Scholars; Association schools; liberal schools; Tlemcen; Bashir el-Ibrahimi.

المقدمة: لا شك أن للمؤسسات التعليمية على اختلاف مستوياتها تأثير بالغ في بناء الفرد والمجتمع، فمن خلالها يحصل الطالب على أسباب الرقي والتقدم في المجتمع، وعبرها تكتمل عنده منظومة المبادئ والقيم والسلوك والأخلاق، ولأهمية المدرسة سعى الاستعمار إلى أن تظل فرص تعليم الجزائريين محدودة تؤطره مدرسة كولونيالية ببرامج تخدم سياسة فرنسا الاستعمارية.

أدركت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المقاصد الخبيثة للاستعمار؛ فركزت على التعليم العربي الإسلامي بتأسيس مدارس حرة في جميع أنحاء الوطن، وسخرت لها ما يلزم من معلمين ووعاظ ومرشدين، وبرامج تعليمية تتماشى والأهداف التي وضعتها، كما شجعت الجزائريين بمختلف أعمارهم على طلب العلم والتعلم من خلال مختلف المؤسسات التي سخرتها لهذه المهمة، فبالإضافة إلى المدارس، وجهت اهتمامها إلى التعليم المسجدي، وفتحت أبواب النوادي الثقافية لتعليم الكبار، كما خصصت أوقات في مدارسها لمن درسوا باللغة الفرنسية. لقد كان الشغل الشاغل لجمعية العلماء الحفاظ على اللغة العربية والقيم الإسلامية والهوية الجزائرية عبر نظام تعليمي تنشره في أنحاء الوطن.

لم تتخلف تلمسان بالرغم من الواقع الذي فرضه الاستعمار الاستيطاني عليها عن ركب النهضة الفكرية المباركة التي عرفتها البلاد بعد الحرب العالمية الأولى، فكان أحد مظاهرها إنشاء الجمعيات والنوادي لنشر الثقافة العربية الإسلامية، والحفاظ على اللغة العربية من الاضمحلال، وكانت العائلات التلمسانية تجتهد لتعليم أبنائها القرآن الكريم وأوليات اللغة

العربية، وظل أهلها يتمسكون بعاداتهم وتقاليدهم بالرغم من مظاهر الحداثة والعصرنة التي عرفت المدينة بحكم تواجد فئة لا بأس بها من المعمرين الأوروبيين.

في الجانب التعليمي عرفت تلمسان ظهور العديد من المدارس الفرنسية بما في ذلك الخاصة بالجزائريين، كما كانت من المدن القليلة التي شيدت بها مدرسة ثانوية وهي ثانوية "دو سلان" (De Slane) والمدرسة الفرنسية الإسلامية (1851) التي كان لها دور لا يستهان به في تكوين نخبة جزائرية مزدوجة الثقافة في مستهل القرن 20م¹ على غرار مدرستي الجزائر وقسنطينة. وبتلمسان تقع واحدة من أهم المعاهد التي أسستها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إنها مدرسة دار الحديث التي تأسست في ظروف أقل ما يقال عنها أنها لم تكن تسمح بظهور مدارس جزائرية لتدريس علوم اللغة العربية والدين الإسلامي؛ ناهيك عن مواد أخرى كالجغرافيا والتاريخ. ومن خلال هذه الدراسة نتبع المسار الذي سار عليه أهل تلمسان وأعضاء من جمعية العلماء لتشيد مدرسة دار الحديث، والصعوبات والعراقيل التي واجهتها وتصدت لها حتى تظل صرحا قائما في وجه أعداء النهج الإصلاحي لجمعية العلماء.

1- جمعية العلماء الجزائريين بغرب الوطن: رأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنه لا بد من توزيع نشاطها الإصلاحي على كل أرجاء الوطن، فكان من الضروري نشر علمائها الكبار على مناطق البلاد الرئيسية للإشراف على نشاطات الجمعية وتسيير شؤونها، فتولى الإمام عبد الحميد بن باديس الناحية الشرقية، وعهد إلى الشيخ الطيب العقبي بالناحية الوسطى، واختار الشيخ البشير الإبراهيمي منطقة الغرب، ذلك أنه كان لا بد من إنجاح الدعوة الإصلاحية بها بالاعتماد على شخصية لها قيمتها العلمية والفكرية.

سبق للشيخ عبد الحميد بن باديس أن زار مدينة تلمسان عام 1923م من أجل التعرف على أهلها، ثم زارها مرة أخرى بتاريخ 28 أبريل 1927 حتى يتعرف على شيوخها وزواياها، ويوطد علاقته بهم، تلتها زيارة أخرى سنة 1931 بدعوة من الجمعية السنوسية، وفي عام

1- زاوي نبيلة، مدرسة تلمسان الفرنسية الإسلامية وعلاقتها بإدماج النخب خلال الفترة الإستعمارية (1850-1951)، مجلة آفاق

فكرية، المجلد 10 العدد2، أكتوبر 2022 صص 175-189 ص 177.

1932 طلب منه أهالي تلمسان البقاء معهم، لكنه اعتذر منهم ووعدهم بأن يرسل لهم من لا يقل عنه علما ولا قيمة.¹

اختار الشيخ البشير الإبراهيمي مدينة تلمسان للاستقرار بها لأهميتها التاريخية والحضارية، ولوجود أهم المدارس الفرنسية- الإسلامية الثلاث بها؛ فقد كانت أحد المراكز الإستشرافية الفرنسية بالجزائر، لذا كان لابد من وجود شخصية بحجم وقيمة هذا الشيخ لمواجهة تأثير الفكر الإستشراقي بالمنطقة، والتصدي لمذاهبهم التغريبية.²

رحب التلمسانيون بالشيخ البشير الإبراهيمي³ عندما حل بها في أواخر سنة 1932، وفي سنة 1933 استقر بها بشكل نهائي مع عائلته، ليقطن بحي أقادير، ثم انتقل إلى بيت آخر قرب مسجد سيدي إبراهيم المصمودي بوسط المدينة.⁴

وقف أهل تلمسان إلى جانب الشيخ الإبراهيمي في وجه العراقيين التي كانت تواجه الحركة الإصلاحية من طرف الإدارة الفرنسية والطرقين، وساندوه في كل الخطوات التي خطاها، والمشاريع التي جاء بها من أجل الحفاظ على اللغة والدين الإسلامي، فكانت مدرسة دار الحديث شاهدة على صدق النهضة الإسلامية والعلمية التي عرفتها مدينة تلمسان ونضجها، ودليل واضح على تمسك أهل تلمسان بقيمهم وتاريخهم الحضاري، ولما أقترح عليهم بناء مدرسة تعليمية لم يمانعوا بل عرضوا عليه المساعدة بكل ما يستطيعون.

2- تقديم مدرسة "دار الحديث": تقع مدرسة دار الحديث بمدينة تلمسان بشارع ابن خلدون غير بعيد عن قصر الثقافة الإسلامي، وهي أكبر مدرسة شيدها الإصلاحيون بعد تأسيس

1- عمار طالي. آثار ابن باديس، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع الجزائر، 1997، ص317.

2- أحمد طالب الإبراهيمي. آثار البشير الإبراهيمي. (1929-1931). دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1979. ج 1 ص33.

3- الشيخ البشير الإبراهيمي: ولد الشيخ بقرية "رأس الوادي" بناحية مدينة سطيف في 14 جوان 1889 في بيت من بيوت العلم والدين، أتم حفظ القرآن الكريم على يد عمه الشيخ المكي الإبراهيمي. هاجرت عائلته إلى المدينة المنورة، وهناك درس الشيخ على يد علماء كبار علوم التفسير، الحديث، الفقه، التراجم، أنساب العرب وأدبهم ودواوينهم، كما درس علم المنطق والحكمة. ثم أصبح يلقي الدروس للطلبة في الحرم النبوي إلى غاية عام 1917، انتقل إلى دمشق للتدريس بالمدرسة السلطانية. في عام 1892 عاد إلى الجزائر وأنشأ مدرسة ومسجدا في بسطيف للتعليم وإلقاء دروس الوعظ. وفي 1931 وضع الإبراهيمي دستور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كواحد من مؤسسيها. ومنذ عام 1932 استقر به المقام بمدينة تلمسان التي اتخذها مركزا لنشاطه المكثف. وفي عام 1940 أصبح الشيخ الإبراهيمي رئيسا لجمعية العلماء.

4- أحمد طالب الإبراهيمي. مذكرات جزائري ج 1 أحلام ومحن، دار الغرب الإسلامي، تونس، ص21.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كان لموقعها دلالة خاصة حيث أنها شيدت مقابل البناية الهائلة لثانوية De Slane¹ العمومية التي كان أغلبية طلابها من الأوروبيين.

اختر لها مؤسسها الشيخ البشير الإبراهيمي اسم "دار الحديث" تعبيراً عن مبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تدعو للرجوع إلى السلفية النقية التي تستمد أحكامها من المصادر الإسلامية الأصيلة (الكتاب، السنة وهدى السلف)، ومحاكاة لدور مدارس الحديث المنتشرة في بعض البلدان الإسلامية من بينها دار الحديث الأشرفية بدمشق، تلك المدرسة التاريخية التي تخرج منها أئمة في العلم وفحول في الأدب، والتي كان من مدرسيها الإمام الحافظ محي الدين النووي، والإمام النظار تقي الدين السبكي²، كان مقدرًا لمدرسة دار الحديث أن تصبح مدرسة للتعليم المتوسط حتى يسمح لتلاميذ المدارس الحرة من متابعة تعليمهم في مستويات أخرى، وكذلك لتمكينهم من اللغة والدين³.

تتكون البناية التي شيدتها سواعد جزائرية على نسق الهندسة المعمارية الإسلامية في الأندلس من طابق أرضي فيه مسجد للصلاة وقاعة للوضوء، على الحائط المواجه لوحة رخامية مثبتة نقرأ عليها ما يلي: "تأسست مدرسة دار الحديث على يد العلامة الفاضل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بمساعدة شعب تلمسان، وقد افتتحها صاحب الفضيلة الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم الإثنين 21 رجب 1356هـ الموافق ليوم 27 سبتمبر 1937م". في الطابق الأول للمدرسة قاعة للمحاضرات وخشبة للمسرح، أما الطابق الثاني فيحتوي على خمسة أقسام للدراسة. وبعد الاستقلال تم توسيع الدار بإضافة مرافق كالمكتبة وقاعة الانترنت.

1 - و. م. دوسلان (William McGuckin de slane) (1878-1801) البارون ويليام ماك دو سلان، مستشرق وفيلسوف فرنسي، عرف بأعماله التي ترجم فيها إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية مؤلفات المؤرخين والجغرافيين عرب من الفترة الإسلامية منها كتاب العبر لابن خلدون وكتاب وصف إفريقيا للبركي وغيرها، كان عضواً بأكاديمية الآداب.

2- الشيخ محمد خير الدين. مذكرات. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ب.ت، ص 183. ينظر كذلك جريدة الشهاب، السنة 12 العدد 8 أكتوبر 1937.

3 Mohamed el korsou. Structures Islahites et dynamiques culturelle dans le mouvement national Algérien 1931-1954. P60

3. فكرة إنشاء الدار: في بداية الثلاثينيات بدأ صيت جمعية العلماء ينتشر، وبدأت مرحلة جديدة من نشاطها بعدما قرر مؤسسوها توسيع عملهم إلى مناطق بعيدة، خاصة وقد خطت الجمعية خطوات جبارة في ميدان تعليم اللغة العربية عن طريق تأسيس المدارس الحرة، وفي إطار هذا النهج توجه الشيخ البشير الإبراهيمي إلى تلمسان في أكتوبر 1933 لبدء مسيرة صعبة وشاقة بجمعية الجمعية الدينية للمدينة¹، حيث عمل على تأسيس أرضية صلبة وخصبة، وتستقبل عقولا نيرة تكون الأساس لعمل إصلاحي شامل.

أمام رغبة أهالي تلمسان في أن يكون لديهم مكان يتعلم فيه أبناءهم اللغة والدين الإسلامي بدلا من المسجد وبعض المدارس التابعة للزوايا، وفي إطار سياسة الجمعية الرامية إلى تأسيس مدارس حرة للحفاظ على اللغة العربية وتدريس الإسلام الصحيح النقي، دعا الإبراهيمي إلى اجتماع اللجنة الدينية الثانية² التي كان يرأسها النائب المالي طالب عبد السلام³ الذي ساند دون تحفظ الشيخ الإبراهيمي بمجرد استقراره بتلمسان، حضر الاجتماع حوالي 150 شخصا وطرح عليهم فكرة تأسيس مدرسة حرة تضم شتات التلاميذ والشباب، ومسجد يأوي إليه كبار الناس لأداء شعائهم، ولسماع دروس الوعظ والإرشاد؛ فلم تجد هذه الفكرة

1- لم تحاول جمعية العلماء فتح مدارس حرة في المدن الجزائرية بمبادرة منها فقط، بل كانت تسعى لذلك عن طريق تكوين جمعيات إصلحية محلية من أشخاص آمنوا بمبادئ الجمعية الإصلاحية. وتتكون هذه الجمعيات في كثير من الأحيان من مختلف الطبقات الاجتماعية في المجتمع. تتولى كل جمعية من الجمعيات التي تطلق على نفسها اسم جمعية الإصلاح أو جمعية التربية والتعليم، فتح مدرسة حرة وغالبا ما تسمى باسم الجمعية التي ترعاها. تتكفل هذه الجمعيات المحلية بالإضافة إلى عملية تأسيس المدرسة، بعملية التجهيز، ودفع رواتب المعلمين وتأمين المسكن لهم، ويتطوع بعض أعضاء الجمعية لإطعام المعلمين البعيدين عن عائلاتهم. بينما تتولى جمعية العلماء عملية اختيار المعلمين والإشراف على سلوكهم ونشاطهم. كما يشمل عملها الإشراف الفني على المدارس كاختيار البرامج التعليمية وتأمين الكتب اللازمة للتلاميذ، والتفتيش التربوي والمراقبة الدورية.

2- هي لجنة أسسها البشير الإبراهيمي بعد استقراره بتلمسان بعد العداوة والمضايقات التي نالته من اللجنة الدينية التي كان يرأسها العشعاشي. تكونت اللجنة الدينية الثانية من رئيسها النائب طالب عبد السلام ومن الأعضاء: مزروق محمد- باربار عبد الكريم- بريكسي حاج أحمد- منصوري محمد بن سليمان- بريكسي محمد- دحاوي الجيلالي- قاضي محمد- قاريجة حاج أحمد- محداد سيد أحمد- طالب حاج أحمد- طالب الحاج بن عياد- طالب الحاج جلول- الطيب علال- بن اسماعيل سيد أحمد- الحاج سليمان بن عودة- الحاج احمد جلول- نبيه الحاج أحمد- فخار بن علي- بن قلفاط غوتي- بن زرجب بن علي- بن ديمراد العربي- قلوب عبد السلام- الشافعي هبري- ابن أباجي الحاج أحمد- محمدي محمد. ينظر أبو القاسم سعد الله، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، العدد 101.

3- طالب عبد السلام: ابن أحد قضاة تلمسان، كان محاميا. وهو عضو بالمجلس الإداري "لنادي الشبان الجزائريين عام 1912، وهو واحد من النخبة الجزائرية المفرنسة.

أي اعتراض من الحضور اللذين بدأوا مباشرة في فتح الاعتماد المالي للمدرسة المقترحة؛ فكانت الحصيلة جمع حوالي ستين ألف فرنك.¹

تم بعد هذا شراء قطعة الأرض التي ستشيد عليها المدرسة، وقد كانت ملكا ليهودي يدعى "بن يشو" بمبلغ 125000 فرنك لم يدفع منها سوى 2000 فرنك عند كتابة العقد، كما لم يتضمن العقد أي شروط أو إشارة لأجل الدفع أو النسبة المئوية للفائدة (النسبة المئوية للفائدة بين المواطنين واليهود فيما يخص هذه الأرض كانت تدور حول 10 %). وهذا دليل على شعور البائع بالطمأنينة نحو المشتري، وخاصة أنهم كانوا يمثلون عائلات معروفة بتلمسان.²

كانت عملية الشراء جماعية حيث ضمت القائمة 171 مشتر من جميع سكان تلمسان ومن مختلف الأوساط، تقول بعض المعلومات أن الشيخ الإبراهيمي لجأ إلى تسجيل ملكية الأرض بأسماء المكتتبين حتى لا تضمها الإدارة الفرنسية إلى أملاك الوقف الذي استولت عليه. بعد تهيئة الأرض، كلفت اللجنة الدينية المعماري ابن مدينة تلمسان المهندس عبد الرحمان بوشامة بتصميم المخططات ورسمها.³ وفي منتصف عام 1936 بدأت أشغال المشروع، وأخذ السيد منصوري محمد المستشار البلدي في جمع التبرعات للمدرسة، وقد جمع في نهاية ديسمبر بين ثمانين ومائة ألف فرنك.⁴

لم تكن الدار ملكا لجمعية العلماء ولا للجنة الدينية بتلمسان بل كانت الأرض والدار ملكية جماعية؛ فقد شيدت بأموال وسواعد أهل المدينة، وبالتالي كان عقد ملكية الدار يضم تسعين مالكا، كما شارك أهالي تلمسان في عملية تهيئة الدار وتجهيزها، وخلال سنة واحدة اكتمل البناء، وقد أنفقت عليه أربع مائة ألف فرنك.⁵

1- أبو القاسم سعد الله، الشيخ الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية (1933-1940)، مجلة الثقافة، العدد 101، 1988، ص 81.

2 - جيلالي صاري، بروز النخبة المثقفة الجزائرية (1850-1950)، ترجمة عمر المعراجي، ANEP، الجزائر، 2007، ص 349.

3- أرشيف ملتقى أهل الحديث 3. (2010). تاريخ الاسترداد 17 3، 2022، من دار الحديث بتلمسان قلعة من الإصلاح الإسلامي في الجزائر: <http://www.ahlalhdeth.com>.

4- مرزوق خالد، عامر المختار. (2013). مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان 1907-1931. الجزائر: دار زمורה. ص 117

5 Mohamed el korso المرجع السابق ص 62

4- إفتتاح دار الحديث: بداية من سبتمبر 1937 سافر الشيخ إبراهيمي إلى مدينة الجزائر لوضع اللمسات الأخيرة على برنامج الافتتاح مع الشيخ عبد الحميد بن باديس، ويبدو أنهما اتفقا على وضع قائمة المدعوين من الجزائر الذين بلغ عددهم حوالي 200 شخص، على أن يحضر الحفل ضيوف من خارج الوطن، كما اتفقا أيضا على فتح باب التبرعات المالية لتغطية الديون الباقية على المدرسة.¹

كان يوم الإثنين 21 رجب 1356 الموافق لـ 27 سبتمبر 1937، يوما مشهودا في تاريخ مدينة تلمسان والحركة الإصلاحية ممثلة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث تواجد الناس من كامل القطر الجزائري لحضور حفل افتتاح الدار، ووصل عددهم حوالي 3000 شخص منهم 700 ضيف من شرق ووسط وغرب الجزائر من بينهم كل أعضاء جمعية العلماء وجميع الهيئات العاملة في الجمعية من مدرسين وموظفين، وثلاثة مدعوين من تونس وبعض علماء المغرب من بينهم الأستاذ إبراهيم الكتاني²، كما حضر الافتتاح ثلاثة صحفيين من جريدة "الأمة"³، ومدير جريدة "العدالة"⁴ وثالث من الجزائر.⁵ ومن المدعوين حضر أعضاء من حزب الشعب الجزائري أمثال الدكتور علال، المحاميان فخار وبوكلي حسن والتاجر بوعلي عبد الله.⁶ وأشرف شباب الحزب- وضعوا على أذرعهم أشرطة خضراء- على حفظ النظام أثناء مراسم حفل الافتتاح.

غاب عن الحفل رؤساء الطرق الصوفية بدائرة تلمسان للذين وجهت لهم الدعوة ورفضوا الحضور، ولعل سبب ذلك عداؤهم للجمعية وأعضائها.

1- نفس المرجع، ص 90

2. الشيخ محمد خير الدين، المرجع السابق، ص 182

3- جريدة الأمة: لا بد من التفريق بين جريدة الأمة التي أسسها التيار الاستقلالي بفرنسا سنة 1930، وجريدة الأمة التي أسسها أبو اليقظان (1933-1938). وقد كانت تمثل واحدة من جرائد التيار الإصلاحي في الحركة الوطنية.

4- جريدة العدالة: واحدة من جرائد التيار الإصلاحي، كانت تصدر باللغة العربية، وتقابلها نسخة أخرى باللغة الفرنسية، أشرف على تأسيسها الشيخ محمود أمين العمودي سنة 1934.

5- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 91.

6. المرجع أعلاه ص 90

في منتصف النهار بدأت مراسم الحفل بعدما وصلت ثلاث حافلات من مدينة البليدة تحمل 90 شخصا.

وخرج أهالي تلمسان كبارا وصغارا للقاء رئيس جمعية العلماء المسلمين، وأثناء الطريق بين المحطة والمدرسة، أنشد الشيوخ ابن باديس والإبراهيمي والورثياني أناشيد دينية، وقد حاول بعض الخصوم التصفير على الموكب ولكن المنظمين أوقفوهم في الحال. ناول الشيخ البشير الإبراهيمي مفتاح الدار إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس ودخلا معا، ودخلت معهما الهيئة الإدارية لجمعية العلماء، ثم تلتها الوفود والأساتذة والمعلمون، فانتشروا في رحابها وأقسامها، ثم أطل الشيوخ من شرفة الطابق الأول، وخاطبهم ابن باديس قائلا: "يا أبناء تلمسان، يا أبناء الجزائر، إن العروبة من عهد تبع إلى الآن تحييكم. وإن الإسلام من عهد محمد صلى الله عليه وسلم إلى اليوم يحييكم، إن أجيال من هذا اليوم إلى يوم القيامة تشكركم وتثني عليكم. وتذكر صنيعكم بالجميل. يا أبناء تلمسان، كانت عندكم أمانة من تاريخنا المجيد فأديتموها، فنعم الأمانة أنتم. فجزاكم الله جزاء الأمانة. والسلام عليكم ورحمة الله".¹

ثم ألقى الشيخ محمد العيد آل خليفة بالمناسبة قصيدة طويلة نقتطف منها ما يلي:

أحيي بالرضى حرما يزار ودار تستظل بها الديار
وروضا مستجد الغرس نضرا أريضا زهره الأدب النضار
وميدانا سترتبع المهاري بساحته وتستبق المهيار
وعينا ما لمنبعها معاض وأفقا ما لأنجمه معتار
أحيي خير مدرسة بناها خيار في معونتهم خيار
تلمسان احتفت بالعلم جارا وما كالعلم للبلدان جار
لقد لبست من الإصلاح تاجا يحق به لأهلها الفخار
فكان له بها نصر وفتح وكان له ذبوع واشتهار
لقد بعث البشير لها بشيرا بمجد كالركائز بها يشار

1. محمد الحسن فضلاء. المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر، الجزء، دار الأمة، الجزائر، 1998، ج 3 ص 145

وفي دار الحديث له صوان بديع للصنع مصقول منار
به عرض البشير فنون علم وأداب ليجلوها الصغار¹
عند منتصف النهار تناول جزء من الضيوف الغذاء عند بعض الأعيان أمثال جلول
سليمان، العربي بن ديمراد، بن سليمان منصوري، بن قلفاط الغوثي.
وفي حوالي الرابعة مساء استأنف النشاط بكلمة النائب المالي طالب عبد السلام، الذي
تمنى أن توافق الإدارة الفرنسية على فتح المدرسة، أما الشيخ الإبراهيمي فقد أكد أن المدرسة
ستنتصر وستغلب على العراقيين، ووجه اللوم إلى السلطات الفرنسية في الجزائر والمغرب
لمنعهم مدعويين مغاربة من الحضور، تلتها محاضرات دينية قدمها الشيخ ابن باديس وغيره من
العلماء². دامت الأفراح طيلة ثلاثة أيام في جو لم تألفه مدينة تلمسان.
5- نظام التعليم داخل الدار: دامت الدراسة بالمدرسة بعد تدشينها ثلاثة أشهر فقط، تحت
إشراف المدير والمرشد الشيخ الإبراهيمي بمساعدة الأستاذ بن عودة بوعيداد بصفته مدير إداريا
وفنيا، والمدرسون الشيخ محمد مرزوق، الشيخ مولاي الحسن البغدادي القادري، الشيخ
الهادي السنوسي، الأستاذ محمد بابا أحمد.
تكونت المدرسة من خمسة أقسام، وضمت حوالي 130 تلميذا مقسمين إلى قسمين: 70
منهم من 5 إلى 15 سنة يعلمهم الأستاذان بابا أحمد ومولاي حسن اللغة العربية ومبادئ الدين
الإسلامي والكتابة، وأما التلاميذ من 15 سنة فما فوق فيدرسونهم الوكيل الشرعي مرزوق محمد
(مستشار بلدي) القرآن والفقه وفق مناهج مدروسة.
أما الشيخ الإبراهيمي فكان يعطي دروسا بشكل يومي وبدون انقطاع في الفقه والتفسير،
والحديث وتاريخ الإسلام³ بداية من الساعة الرابعة بعد الظهر، وكانت كل حلقة تدريس تضم
من 100 إلى 150 شخصا من البالغين.
بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وعودة الدار إلى النشاط من جديد فتح الشيخ
الإبراهيمي ثلاثة أقسام يدرسها الأساتذة محمد ملوكة وعبد الله بوعنان ومختار صبان.

1. الشيخ محمد خير الدين. المرجع السابق ص186

2. أبو القاسم سعد الله. المرجع السابق. ص 91

3. Ali Merad :Le réformisme musulman en Algérie 1925-1940. Elhikma, Alger,1999.

في سنة 1946 تم فتح قسم ذي مستوى عال تحت إشراف الشيخ إبراهيمي؛ فبعد صلاة المغرب من كل يوم كان يقدم دروسا في تفسير القرآن والحديث الشريف واللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والفقه، والشعر والبيان والعروض بمعدل عشر دروس في اليوم.¹ كانت دروس بابا أحمد ومرزوق وغيرهم من الأساتذة تجري أيام الخميس والأحد، أما الأيام الأخرى فكانت تعطى الدروس بعد تسريح التلاميذ من المدارس الرسمية لمدة ساعة في اليوم. ويدفع التلاميذ من 5 إلى 15 فرنكا² حسب إمكانيات كل عائلة وبعضهم كان يدرس مجانا. ورغم هذا ظلت المدرسة تعاني من مشاكل مالية؛ فالدور الذي كانت تقوم به أكبر من الميزانية التي كانت تجمعها إدارة المدرسة. وفي أوائل الخمسينيات ألحقت بها مدرسة أخرى ملاصقة لها تحمل اسم "عائشة أم المؤمنين" خصصت لتعليم البنات، وقد بلغ مجموع تلامذتها في هذه الفترة نحو ألفي تلميذ وتلميذة³، أما الأساتذة والمديرون الذين عملوا فيها فنذكر منهم محمد الصالح رمضان، محمد بابا أحمد، أحمد الشاوي، عبد الله أبو عنان، المختار الصبان، محمد ملوكة، مصطفى بن ثابت، عبد المجيد مزيان، محمد بن يلس، الجيلالي حجاج، عبد الوهاب بن منصور، بن عودة بوعيداد، محمد بن عقيلة، حمزة بلعيد، صالح زروق، سليمان بشنون، عبدالعزيز قرووف، مولاي الحسن البغدادي، والمعلمات نذكر منهن خديجة بن ديمراد، ربيعة بن الحبيب، زليخة كراي، فتيحة قورصو، خديجة خلدون، زليخة إبراهيم عثمان، خيرة إبراهيم عثمان، ربيعة بن ثابت، زبيدة بوصالح، كنزة بلخوجة، فضيلة سلعاجي، زاهية عبورة، فاتحة مراد بودية، رشيدة بن ديمراد. وكلهن من طالبات دار الحديث ومعلمات فيها وفي مدرسة عائشة المجاورة. والطالبة زليخة كوار- وهي مكفوفة- التي تحدثت العى من صغرها، وأخذت تعليمها عن طريق السمع والتلقين، وخاضت امتحان الشهادة الابتدائية العربية الذي نظمته جمعية العلماء؛ فنالتها بتفوق⁴.

1- طوالب عبد الله. مدرسة دار الحديث بتلمسان ودورها في مقاومة السياسة الإستعمارية، حوليات التاريخ والجغرافيا. المجلد 7، 2013 ص 177 (صص 165-185).

2- تقرير المفتش العام روماتر (Romattet) إلى والي تلمسان بتاريخ 11 نوفمبر 1937.

3- الشيخ محمد خير الدين. المرجع السابق. ص 182.

4- محمد الحسن فضلاء. المرجع السابق. ص 166.

6- دار الحديث تتعرض لمضايقات الإدارة الفرنسية: عندما قررت اللجنة الدينية لمدينة تلمسان تأسيس مدرسة للتعليم الحر كانت تتوقع أنها ستحصل على ترخيص الإدارة الفرنسية بمجرد الانتهاء من الأشغال، وبخاصة وأن عددا من أعضاء اللجنة كانوا نوابا أو موظفين بالإدارة الفرنسية، ومنهم رئيس اللجنة نفسها.

ما إن تمت مراسيم إفتتاح الدار حتى قدم النائب العام دعوة ضد الشيخ الإبراهيمي بتهمة القيام بمسيرة غير مرخصة، واستعمال مكبر الصوت، ومهاجمة السياسة الفرنسية من خلال خطبة الورثيلائي. وأرسل تقريرا إلى والي وهران يتهم فيه البشير الإبراهيمي ومن معه من جمعية العلماء بالعمل ضد السلطة الفرنسية¹، لكن طالب عبد السلام بوصفه محاميا ونائبا بلديا قدم طلبا بإعادة فتح الدار.

في أول يناير 1938 صدر قرار رسمي بإغلاق المدرسة. وقامت السلطات الفرنسية بغلق الأقسام المخصصة للتعليم، وأبقت على قاعة المحاضرات والجامع. لكن الشيخ الإبراهيمي رفض التوقيع على محضر الأمر بغلق المدرسة، واستمر في استعمال الجامع وقاعة المحاضرات²، وظلت مغلقة إلى أن أعيد فتحها بعد المحاولات المتكررة من قبل أعيان المدينة ونوابها ودفاع جمعية العلماء. كما ساهمت صحف الجمعية في حملة الدفاع عن المدرسة، وقد صورت جريدة البصائر هذا التصرف الجائر على النحو التالي: "... من المصائب (الاستثنائية) على هذه الأمة أن القوانين تفرض عليها: أن تفرح بمقدار وأن تحزن بمقدار، لقد اجتمع الموجبان (موجب الفرح وموجب الحزن) حول مدرسة دار الحديث فتحناها فاحتشد في تلمسان عشرون ألفا من أبناء هذه الأمة في حفلة ضاحكة يعلوها جلال العلم، ووقار الدين وسكينة التقوى وروعة النظام، وتجمعها جامعة الابتهاج بأعظم معهد علمي ديني شيد بأموال الأمة في الجزائر الحديثة، وفي أول يناير صدر قرار بإغلاقها... فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم"³.

1. نفس المرجع ص 92 عن تقرير نائب الوالي إلى والي وهران في 1937/12/31 رقم 8279

2. Amar Hallal . Le mouvement réformiste algérien. 1831-1954 , OPU ,Alger; P171

3- جريدة البصائر، العدد 100، فبراير 1938.

وانتقد أبو اليقظان في مقال بجريدة الأمة (1 فبراير 1938) الأسباب التي تحجبت بها السلطات الفرنسية لغلق المدرسة دون سابق إنذار أو إشعار بدعوى أن لهذه الدار صلات سياسية بالخارج، وأنها باتت وكرا للدعايات الأجنبية موضحا أن الدافع الحقيقي إلى ارتكاب هذه الجريمة هو ضرب التعليم العربي واللغة العربية¹.

ما إن استأنفت المدرسة نشاطها التدريسي، وتمكنت من افتكاك حق فتح الأقسام للتلاميذ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية، فقررت مديرية التربية (l'Académie) احتلال مقرات الدار احتلالا كاملا لأسباب سياسية بحيث لا تبقى للجمعية أي صلة بالدار، واقترح نائب الوالي أن تتحول إلى ثكنة للجيش الفرنسية.

توقفت الدار عن نشاطها، خاصة بعد نفي الشيخ البشير الإبراهيمي في 4 أوت 1939 إلى آفلو التي قضى بها ثلاث سنوات، ثم فتحت مدرسة دار الحديث أبوابها بعد إخلاء سبيل الإبراهيمي؛ فاستأنفت نشاطها ولم تتوقف إلا في ماي 1956 حيث أغلقت مجددا من طرف السلطات الفرنسية، وحولها الجيش الاستعماري إلى ثكنة² إلى غاية الاستقلال حيث أعيد افتتاحها، وعادت لوظيفتها الأصلية.

7- تلاميذ دار الحديث شهداء حرب التحرير: انضم عدد كبير من تلاميذ دار الحديث إلى الثورة التحريرية، وكانوا من جنودها الأوفياء، وهذه قائمة الشهداء الذين وقعوا في ميادين البطولة والشرف خلال فترة الحرب التحريرية ضد الاحتلال الفرنسي (1954-1962م)، وتواجهك أسماؤهم على لوحة رخامية في مدخل دار الحديث: مليحة حميدو، عويشة حاج سليمان، كمال قورصو، جمال أباجي، عبد الرزاق أباجي، عثمان محمد إبراهيم، عز الدين الصبان، مصطفى بابا أحمد، شرقي أحمد يحيوي، عبد الرزاق بختي، محمد الصغير برحيل، الحاج حناوي، محمد حساين بوفردة، علي خديم، سيد أحمد مازوي خياط، بن علي بودغن (العقيد لطفي قائد الولاية الخامسة التاريخية)، عبد الحفيظ بوزراع، منير ديب، محمد ولد أحمد رمضان، عبد الحميد بالسعود، حسن شحي، مصطفى بن شهرة، عبد الكريم بن

1. محمد ناصر. أبو اليقظان وجهاد الكلمة. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، 1983. ص 126

2- عزّ الدين رمضان- مدرسة دار الحديث بتلمسان كما أرادها الشيخ البشير الإبراهيمي- رحمه الله. 27 سبتمبر 2017.

<https://binbadis.net/archives/3653>

شهرة، عبد الله كرزاي، قادة مرزوق، منير مغيلي، قويدر مهاجي، أحمد بن شقرة، محمد شقرون، جيلالي صاري، عبد الرزاق صاري، حسين علالي، شكري علالي، مختار غزلاوي، جلول غزلاوي، محمد غزلاوي، عبد الكريم بوعباد، رشيد رضا قارة تركي، محمد خير الدين قروزان، محمد قادة قلووش، عبد الحميد قرطي، حسين قوار، منير قوار، محمد الكبير كاهية ثاني، محمد بن يحيى¹.

الخاتمة: كانت دار الحديث بتلمسان في فترة من تاريخ الجزائر رمزا من رموز التحدي والثبات في وجه الاحتلال الفرنسي، وقفت في وجه السياسة الفرنسية الرامية إلى القضاء على الهوية العربية الإسلامية لأبناء الجزائر، فمن خلال نشاطها الإصلاحي الذي كان امتدادا لنشاط جمعية العلماء المسلمين في الغرب الجزائري، وخصوصا مدينة تلمسان، حافظت الدار على تعليم اللغة العربية، وتحفيظ القرآن الكريم، ونشر تعاليم الدين الإسلامي النقي من شوائب عادات الجاهلية والخرافات والدجل والشعوذة، وأعادت للإسلام نقاءه ورونقه على عمق وبساطة تعاليمه. بالرغم من العراقيل التي كانت تجدها من طرف السلطات الفرنسية والحاquدين من الأهالي؛ فبفضل هذه المدرسة الصامدة والحرّة أصبح للحركة الإصلاحيّة بمقاطعة وهران مركزا للدعاية، ومكان إشعاع ثقافي من الطراز الأول؛ فتخرج منها علماء وأساتذة واصلوا المسيرة بعد الاستقلال، وأبطال دافعوا عن أرضهم حتى تظلّ عربية إسلامية وتتخلص من نير الاحتلال؛ فبذلوا الغالي والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الحق، وستظل رمزا لنضال مجموعة من الجزائريين المتمسكين بهويتهم العربية الإسلامية، وعلى رأسهم الشيخ البشير الإبراهيمي، ورمزا للثبات على الحق.

1- أرشيف ملتقى أهل الحديث- دار الحديث بتلمسان قلعة من قلاع الإصلاح الإسلامي في الجزائر- المكتبة الشاملة الحديثة ص473

الرابط: <https://al-maktaba.org/book/31616/73475#p9>



قائمة المصادر والمراجع

أبو القاسم سعد الله- الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية 1933-1940- مجلة الثقافة- العدد 101-

1988- صص 79-92

أحمد طالب الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، (1929-1931) المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1979.

أحمد طالب الإبراهيمي، مذكرات جزائري، أحلام ومحن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000

أرشيف أهل الحديث- من دار الحديث بتلمسان قلعة من الإصلاح الإسلامي في الجزائر، 2010.

<http://www.ahlalhdeth.com>

أرشيف ولاية وهران، تقرير المفتش العام لمقاطعة وهران، Romettet

الشيخ محمد خير الدين، مذكرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د. ت.

رمضاني عز الدين، دار الحديث كما أرادها الشيخ البشير الإبراهيمي، (2022) <https://binbadis.net/archives/3653>

زاوي نبيلة، مدرسة تلمسان الفرنسية الإسلامية وعلاقتها بدماج النخب خلال الفترة الاستعمارية (1850-1950)، مجلة آفاق

فكرية، المجلد 2 العدد 10، صص 175-189.

محمد الحسين فضلاء، المسيرة الرائدة للتعليم الحر، دار الأمة، الجزائر، 1998.

جيلالي صادري، بروز النخبة المثقفة الجزائرية (1850-1950)، ترجمة عمر المعراجي، م. و. ن. ت، الجزائر، 2007.

طالبي عمار، آثار عبد الحميد بن باديس، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997.

طوبل عبد الله، مدرسة دار الحديث ودورها في مقاومة السياسة الاستعمارية، حوليات التاريخ والجغرافيا، العدد 4 المجلد 7

صص 165-185.

محمد ناصر، أبو اليقضان وجهاد الكلمة، م. و. ن. ك. الجزائر، 1983.

مختار عامر، خالد مرزوق، مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان (1907-1931)، دار زمورة، الجزائر، 2013.

15- Ali Merad. (1999). Le réformisme musulman en Algérie 1925-1940. Alger: El hikma.

16- Amar Hallal. . (1971). Le mouvement réformiste algérien. 1831-1954. Alger: OPU.

17- El korso, M. (1989). Politique et Religion en Algérie ,l'Islah :ses structures et ses Hommes, le cas de l'association des Ulama Musulmans Algériens en Oranie 1931-1945. Paris: (Thèse de doctorat).